أزمةُ المثقف العربي في رواية «أمري كان لي» لصنع الله ابراهيم:

شهادة على الواقع وليس مجرد سرد لحكايته الغريبة

محمد الأحمد*

■ إذا كان قد كتب عن «القاهرة» بشوارعها الحديثة، وحواريها القديمة بوصفه أحد مواطنيها العارفين حقائقها، وأيضا عن بناء «السد العالي» في (نجمة أغسطس)، ومن بعدُ غادر «مصر»، واتجه شرقاً إلى «لبنان» في رواية (بيروت.. بيروت) كاشفا دقائق حربها الأهلية، ثم عبر إلى الخليج، و(وردة) عن بواطن «سلطنة عُمان»، وسبقها (اللجنة) ولحقتها (ذات) ودخل السجن وكتب (شرف)، و(تلك الرائحة).. ترجم إلى العربية عن الألمانية رواية (حمار بوردن) الرائعة، فنجده في (أمريكانلي ـ أمري كان لي)، يدهش في ما يناوله من أزمة متواصلة الخيبة، باقية، يعيشها المثقف العربي. ومحددا الخطوط محنته المتواصلة، وأسبابها، فتبقى أيضاً كعلامة فارقة بين العلامات الكبيرة التي ابتدعها (صنع الله إبراهيم) في مسيرة الرواية العربية الحديثة. حيث يقفُ أستاذ التاريخ بطلها موقفاً مهاجماً لما كان راكداً تحت بركة الزيت التي تفصل الماء عن الهواء، بموضوعية جريئة ذات زخم أبستمولوجي، موسوعي، مقارناً، كاشفاً عبرها عما بقيَ ازدواجياً متناقضاً ما بين الفكر، والممارسة، فأستاذ التاريخ العربي، استدعيَ معيناً ليعطي دروسه لثلة من طلبة الدراسات العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، نجدهُ للتوّ قد أنهى فنجان قهوته، في شقة له مؤجرة حديثاً، لينطلق سيراً حثيثاً في عمقِ مدينة كبيرة، متنقلاً بسرد دقيق مليء بالإشارات والدلالات، مجترّحاً إياها بفطنة عالية، وهي مزية فيه جعلته في طليعة كبار كتاب الرواية العربية، وسائرا مقارناً بين الثقافات المتباينة وسلطاتها المتناحرة، عند منحدر تحولها الخطير، في عالم اليوم التكنولوجي، متابعاً مسار التاريخ القديم «الهكسوس»، وتكرار المأساة مع الحديد الذي لم تكن تملكه ولا الخشب وهو الوقود اللازم لتصنيعه، فدخلت عصره متأخرة بعد «الحيثيين» بخمسة قرون. انهارت إذن لأنها عجزت عن مجاراة أحداث ميدان «بنيامين» في بكين سنة 1989م، وجذبت «سارة» أمها من ملابسها، فانحنت وحملتها بين ذراعيها. قالت: هذه الساحة التي يتم فيها الليشنج ـ ليشنج؟ اجل. يقرر الجمهور شنق زنجي أو صيني وينفذون قرارهم في الحال دون أن ينظروا حكماً قضائياً. كان الأمر منذ قرن ونصف الرواية ص 87)، ونجد الروائيـ المؤرخ يستخدم وثائق ذكرها على لسان إبطاله، او كهوامش في أسفل الصفحات، عبر أستاذ التاريخ الناطق باسم الروائي، والمقارنة، بالفوارق الجوهرية ما بين المنظومتين المعرفيتين. وما تشكل بينهما من اختلاف؛ يتطرق كذلك إلى دور الأوروبيين في اصطياد الأفارقة واستعبادهم، ونقلهم الى القارة الجديدة، والتمييز العنصري، وبعض الحوادث التي تعرض لها السود مثل حادثة «ممفيس» التي احرق فيها «75» منهم أحياء، واغتيال «مارتن لوثر كينغ» ورفض الملاكم «محمد علي كلاي» حرب فيتنام، مشيرا إلى فساد الأنظمة متطرقا إلى فضيحة الرئيس السابق «بيل كلينتون» وسكرتيرته الحسناء «مونيكا لوينسكي» في خريف 1998م، (مونيكا ارتكبت الفعل لأنها استعملت شفتيها أما هو فلم يرتكبه لأن سيجاره هو الذي لامسها وليس هو شخصياً (الرواية ص).. كذلك فضيحة «وايت ووتر» التي ذهب ضحيتها شهود كانوا حول «كلينتون» وزوجته. (لكني سرعان ما شعرت بالإحباط فالتاريخ الذي اقبلت على دراسته كان عبارة عن تسلسل معارك وملوك وعظماء وانتصارات وهزائم. مئات الأسماء والتواريخ دون تفسير، وسرد، وتجميع على طريقة مؤرخي العصور الوسطى (الرواية ص 99). ويكون مقارناً باحثاً في موضوعة العولمة عبر تحليل الوضع الاقتصادي العالمي من خلال اندماج الشركات والبنوك العملاقة وتأثيرها على انتشار البطالة في الدول المتقدمة عدا عن زيادة إفقار بلدان العالم الثالث. (تطرق الحديث إلى صعوبة تحقيق المخطوطات والوقائع التاريخية. وقلت إن المشكلة معقدة لأنها تتعلق في جانب منها بالمقدسات الدينية. كم من المسلمين مثلا يعرفون أن «أبي هريرة» كان يختلق الأحاديث النبوية وأن «عمر بن الخطاب» حذره من ذلك عدة مرات؟ قال: لن تجد الأجيال القادمة صعوبة فيما يتعلق بالأحداث المعاصرة. فكل شيء مسجل الآن بالصوت والصورة (الرواية). بمعنى أنها رواية تشكل «system» مقسمة إلى مجموعة من (subsystems) قسمها كأستاذ مؤرخ ـ عبر علاقته مع مجموعة من الأكاديميين العرب، وخصوصاً المصريين، وبعض المثقفين الذين لجأوا إلى الولايات المتحدة ودورهم في تزييف الوعي. (توافق ذلك مع فلسفة التعليم ذاتها التي وضع أسسها المستشار الانكليزي «دنلوب» عقب الاحتلال الانكليزي وما زالت سائدة حتى اليوم ـ أي بعد أكثر من قرن ـ بهدف تخريج موظفين جل اعتمادهم أثناء الدراسة على الاستظهار والحفظ لا على القوى العقلية في الابتكار والاستنباط، وأذكر مرة أردت أن أتفلسف على أحد الأساتذة فتساءلت عما إذا كان من الممكن اعتبار الفتح العربي لمصر حرباً توسعية تحت ستار الدين. وتعرضت يومها للسخرية والاستهزاء فكيف أجرؤ على التفكير بشكل مختلف؟ (الرواية ص 99). معرجاً على مرحلة المماليك والاحتلال العثماني حتى الاستعمار البريطاني، وسقوط فلسطين، وتجربة الرئيس (جمال عبد الناصر) ومحاكمة الوضع الحالي بعد (أنور السادات)، ومن تلاه على سدة الحكم مخلفاً أوضاعاً اقتصادية مريرة، وحريات شخصية تحدّ منها هيمنة أجهزة دولته الأمنية، دون ان يفوته الهواء، بموضوعية جريئة ذات زخم أبستمولوجي، موسوعي، مقارناً، كاشفاً عبرها عما بقيَ ازدواجياً متناقضاً ما بين الفكر، والممارسة، فأستاذ التاريخ العربي، استدعيَ معيناً ليعطي دروسه لثلة من طلبة الدراسات العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، نجدهُ للتوّ قد أنهى فنجان قهوته، في شقة له مؤجرة حديثاً، لينطلق سيراً حثيثاً في عمقِ مدينة كبيرة، متنقلاً بسرد دقيق مليء بالإشارات والدلالات، مجترّحاً إياها بفطنة عالية، وهي مزية فيه جعلته في طليعة كبار كتاب الرواية العربية، وسائرا مقارناً بين الثقافات المتباينة وسلطاتها المتناحرة، عند منحدر تحولها الخطير، في عالم اليوم التكنولوجي، متابعاً مسار التاريخ القديم «الهكسوس»، وتكرار المأساة مع الحديد الذي لم تكن تملكه ولا الخشب وهو الوقود اللازم لتصنيعه، فدخلت عصره متأخرة بعد «الحيثيين» بخمسة قرون. انهارت إذن لأنها عجزت عن مجاراة أحداث ميدان «بنيامين» في بكين سنة 1989م، وجذبت «سارة» أمها من ملابسها، فانحنت وحملتها بين ذراعيها. قالت: هذه الساحة التي يتم فيها الليشنج ـ ليشنج؟ اجل. يقرر الجمهور شنق زنجي أو صيني وينفذون قرارهم في الحال دون أن ينظروا حكماً قضائياً. كان الأمر منذ قرن ونصف الرواية ص 87)، ونجد الروائيـ المؤرخ يستخدم وثائق ذكرها على لسان إبطاله، او كهوامش في أسفل الصفحات، عبر أستاذ التاريخ الناطق باسم الروائي، والمقارنة، بالفوارق الجوهرية ما بين المنظومتين المعرفيتين. وما تشكل بينهما من اختلاف؛ يتطرق كذلك إلى دور الأوروبيين في اصطياد الأفارقة واستعبادهم، ونقلهم الى القارة الجديدة، والتمييز العنصري، وبعض الحوادث التي تعرض لها السود مثل حادثة «ممفيس» التي احرق فيها «75» منهم أحياء، واغتيال «مارتن لوثر كينغ» ورفض الملاكم «محمد علي كلاي» حرب فيتنام، مشيرا إلى فساد الأنظمة متطرقا إلى فضيحة الرئيس السابق «بيل كلينتون» وسكرتيرته الحسناء «مونيكا لوينسكي» في خريف 1998م، (مونيكا ارتكبت الفعل لأنها استعملت شفتيها أما هو فلم يرتكبه لأن سيجاره هو الذي لامسها وليس هو شخصياً (الرواية ص).. كذلك فضيحة «وايت ووتر» التي ذهب ضحيتها شهود كانوا حول «كلينتون» وزوجته. (لكني سرعان ما شعرت بالإحباط فالتاريخ الذي اقبلت على دراسته كان عبارة عن تسلسل معارك وملوك وعظماء وانتصارات وهزائم. مئات الأسماء والتواريخ دون تفسير، وسرد، وتجميع على طريقة مؤرخي العصور الوسطى (الرواية ص 99). ويكون مقارناً باحثاً في موضوعة العولمة عبر تحليل الوضع الاقتصادي العالمي من خلال اندماج الشركات والبنوك العملاقة وتأثيرها على انتشار البطالة في الدول المتقدمة عدا عن زيادة إفقار بلدان العالم الثالث. (تطرق الحديث إلى صعوبة تحقيق المخطوطات والوقائع التاريخية. وقلت إن المشكلة معقدة لأنها تتعلق في جانب منها بالمقدسات الدينية. كم من المسلمين مثلا يعرفون أن «أبي هريرة» كان يختلق الأحاديث النبوية وأن «عمر بن الخطاب» حذره من ذلك عدة مرات؟ قال: لن تجد الأجيال القادمة صعوبة فيما يتعلق بالأحداث المعاصرة. فكل شيء مسجل الآن بالصوت والصورة (الرواية). بمعنى أنها رواية تشكل «system» مقسمة إلى مجموعة من (subsystems) قسمها كأستاذ مؤرخ ـ مثقف، يعرف ما له وما عليه، واضعاً نفسه أمام مفترق الطرق، ويجري مقارناً ما بين الذي كان سائداً عليه، وما استجد عليه، بحكم الموقع الجديد: المنظومة التكنولوجية؛ المنظومة الاجتماعية؛ المنظومة الإيديولوجية؛ المنظومة السلوكية. (ان التاريخ لا ينفصل عن الإنسان، وبخاصة الإنسان المتخصص الذي نسميه بالمؤرخ ـ عبد الله العروي) فتتكوّن المنظومة الدنيا التكنولوجية من الأدوات أو التجهيزات المتجسّمة مادياً ومن تقنية استخدامها، التي بفضلها يجري تفاعُل الأفراد والجماعات البشرية مع الوسط الطبيعي، وسجل الروائي سردا، دون إغفال (أدوات الإنتاج، وسُبُل المعيشة، ومواد بناء المساكن، ووسائل الهجوم والدفاع. وتتضمن المنظومة الاجتماعية العلاقات بين الناس، وما يقابلها من أنماط السلوك وهذا يشمل منظومات القرابة، والمنظومات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والحربية والمهنية). المنظومة الإيديولوجية المكوّنة من الأفكار والمعتقدات والمعارف، التي يجري التعبير عنها بمساعدة الحديث (الكلام) والأشكال الرمزية الأخرى؛ وهي تضمّ أيضاً الخرافة، والدين، والأدب، والفلسفة، والعلم، والحكمة الشعبية. (انفرجت أساريرها وردّت بحمية: أنا أعمل طول اليوم في شركة بها 600 محام. عمل محسوب بالساعات. في البداية كنت أعمل 15 ساعة في اليوم. هذه الساعات الخمس عشرة تجلب لي ألفين وخمسمائة دولار في السنة أي خمسين دولارا في الأسبوع. أما الشركة فتتقاضى من العميل ثلاثمائة دولار في الساعة. أي أنني أحقق لها أكثر من سبعمائة وخمسين ألف دولار في السنة. لهذا أبذل كل جهدي كي أصبح من الشركاء بعد سنوات فيرتفع دخلي إلى خمسين ألفا في الشهر زائد مكافأة سنوية عشرة آلاف. وعندما أبلغ الأربعين سيصبح دخلي مليونا في السنة. أضاف زوجها: وفي الخامسة والأربعين سيكون المبلغ ثلاثة ملايين وفي الخمسين عشرة ملايين وهي اللحظة التي ستتقاعد فيها. أما أنا فلن أتجاوز عند تقاعدي في الستين رقم المائة ألف في السنة تخصم منها الضرائب وأقساط القروض. التقط حبة فستق من طبق المكسرات وأضاف متحاشيا النظر إليها: المال هو كل شيء عند الأمريكي. يوميا يحسب كم كسب؟ وكم أنفق؟ وكم ادخر؟ (الرواية ص 65). ولا يعوّل المؤرخ (بطل الرواية المحور) الأهمية ذاتها على المنظومات الدنيا المذكورة، بل يعتبر التكنولوجيا حاسمةً ورئيسةً في تطور الثقافة وقيامها بوظائفها. (ابتداء من لحظة الذروة في سنة 1187 بدأ انحدار الإسلام لأنه انغلق في وجه المعرفة (الرواية ص 107)، إذ أجرت الرواية مسحاً شاملا لفاهيم الثقافة وتعريفاتها العديدة جداً، خاصة المفاهيم المنهجية، والمنظومة، التي تناولها بالسرد حيناً أو بالحوار ملتقطاً الكيف والنوع في التصنيف، وراسماً صورة العزلة، والتركيب والتفاعل والتكامل للثقافة ككل، على الرغم من تعدُّد العناصر والمكوّنات التي لا يجوز إبقاؤها مفكّكة. لتبقى الرواية في مصاف الكتب الأكثر مواجهة مع حرية الإنسان. مليئة بالمفارقات، والمتعارضات (قامت السيدتان إلى المطبخ وتبعتهما ببصري. وشردت إلى أن سمعت ماهر يتحدث عن العبقرية الأمريكية، وقدرتها على علاج الأزمات بفضل الإمكانيات الهائلة والتقدم الاقتصادي والعقول المجتذبة من كل مكان، والذراع العسكرية الطويلة القادرة على ملاحقة أي مكان في العالم. وقال إننا ربما نكون فعلا قد بلغنا نهاية التاريخ كما تنبأ «فوكوياما» وستحل أمريكا مشاكل المستقبل بالخروج إلى الفضاء الخارجي وندخل مرحلة مختلفة كلية بقوانين أخرى (الرواية). فأستاذ التاريخ عندما كان في بلده يعرف ماذا عليه ان يفعل ليتخلص من المنوع المعرفي، حرية من كان أمره بين يديه، ولكنه بعد ان وصل إلى نقطة معرفية ما فرضت عليه تلك النقطة قيداً معرفيا آخراً، وصادرت أمره الذي كان بين يديه، ويمكن القول: (الثقافة كمقولة اجتماعية: قوامها القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية إلخ. الثقافة كإيديولوجيا: تعرّف الثقافة في إطارها بصفتها المنظار الذي يرى الفرد من خلاله ذاته ومجتمعه، وبصفتها، أيضاً، معيار الحكم على الأمور أيضا. الثقافة بوصفها انتماء: تُعبِّر عن التراث والهوية والشعور القومي وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية إلخ. الثقافة بوصفها تواصلاً: من خلال نقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات بين الأجيال. الثقافة بصفتها دافعاً: على الابتكار والإبداع، والنضال ضدَّ القهر والتصدّي لصنوف الظلم الخ، فالثقافة بوصفها حصاداً متجدداً: يتم استهلاكه وإعادة إنتاجه والتفاعل معه وإدماجه في مسار الحياة اليومية ـ د. نبيل علي)، ففي كل مقطع يتركهُ بلا تعليق، وقد أشار بذكاء إلى مقاصده، مؤشراً للتفكك الأسري: (حلمت بأني في منزلي بالقاهرة بعد عملية جراحية وأني متزوج من واحدة لم أتبين ملامحها. وهناك صديق لي يقف بجوارها. طلبت منه الانصراف وعدم العودة ودفعته في عنف نحو الباب دون أن يقاوم. ثم عاد وأدركت أنه متآمر مع زوجتي رغم أني سبق واتفقت معها على ألا يدخل منزلنا، فأعلنت أني ستارك المنزل. ولم تعبأ زوجتي بتهديدي (الرواية ص 68)، مفككا العلاقات التي كانت يربط بينها المكان (وجدت شارعي يعج بالنشاط على غير العادة. واكتشفت أن سكانه يعرضون حاجياتهم الفائضة للبيع أمام منازلهم ويجلسون خلفها في ملابس خفيفة وشورتات يتسامرون في انتظار المشترين، وهم يحتسون النبيذ. أعدت الأفلام إلى حانوت الشرائط وانتقيت فيلم سحر البورجوازية الخفي لـ«بونويل»، و«كرامر» ضد «كرامر» وثالثاً من الإيروتيكي عن علاقة بين امرأتين. وعند عودتي وجدت جيران الشارع يتناولون الطعام بجانب حاجياتهم (الرواية). و(صنع الله ابراهيم) يجيد التركيز على ما يختاره للقارئ من صور مشوقة لأجل ان يتابعه بشغف (ابتلعت ريقي ثم واصلت: كانت «رجاء» كما قلت أول فتاة تثير اهتمامي العاطفي وكانت هي المسئولة عن تجدد اهتمامي بالدراسة كانت لا تفتأ تهاجم برامج التدريس التي وضعت بعد الثورة، وتقول إنها تستهدف تكوين المواطن المعتز بقوميته بالتركيز على الأمجاد التاريخية دون إطار يجعل الطالب قادرا على فهم أسس بنيته المعاصرة (الرواية ص 101). كون بطل الرواية مرتكزاً على التعددية الثقافية (التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم، ولا تؤدي بالضرورة دائما إلى السيطرة والعداوة؛ بل تؤدي إلى المشاركة وتجاوز الحدود، والى التواريخ المشتركة والمتقاطعة ـ ادوارد سعيد)؛ ذلك يتطابق وما يؤكدهُ البدع «محمود درويش» بان الشعراء والفنانين والمبدعين (يرتكبون جرائم بريئة بتحويلهم المآسي الإنسانية إلى جماليات مفرحة، وهو المأزق الذي يقضّ مضجع أيّ مبدع ليظل عزاؤه أن هذا يخلق أملا مبتكرا أو متخيلا). ويرى كمبدع وجود تمزق بين استفادة المبدع من العتمة وتحويلها إلى ضوء وهو ما تتمكن منه الإرادة الإنسانية، (ان أي شاعر يرغب في الانطلاق ويبذل جهودا طائلة جمالية ومعرفية من أجل شحن القصيدة لتتجاوز شرطها التاريخي نسبيا، والخطر الشعري يكون عندما ترتبط القصيدة بالراهن، ولا يترك لها مجالاً للاستمرارية). فالمثقف عندما اجترح مخياله أستاذاً للتاريخ، فهو يروم المقارنة بين مسيرة التاريخ، ووثيقته المسكوت عنها، فقد أكد على صدق ما يؤمن به عندما جهر قائلا، بلا تردد، أو تحوّط: (لا يراودني شك في ان كل مصري هنا يدرك حجم الكارثة المحيقة بوطننا، وهي لا تقتصر على التهديد العسكري الإسرائيلي الفعلي لحدودنا الشرقية، ولا على الامتلاءات الأمريكية، وعلى العجز الذي يتبدى في سياسة حكومتنا الخارجية، وإنما تمتد إلى كل مناحي حياتنا، فلم يعد لدينا مسرح او سينما او بحث علمي او تعليم لدينا فقط مهرجانات ومؤتمرات وصندوق أكاذيب. لم تعد لدينا صناعة أو زراعة أو صحة او عدل. تفشى الفساد والنهب. ومن يعترض يتعرض للامتهان وللضرب والتعذيب. وفي ظل هذا الواقع لا يستطيع الكاتب ان يغمض عينيه او يصمت لا يستطيع أن يتخلى عن مسؤوليته). فثمة أزمة متفاقمة في المناهج الفكرية العربية، كون اغلب أساتذته تطلب من الطلبة، ما تحت البصر، وهي الرقيب المتكرر على اي بحث جدي، إذ تريد ان تفرض عليه قيوداً، وترهبه قمعاً، حتى لا يمسّ التابوات الثلاث (الدين ـ الجنس ـ السياسة)، وتحدد له شرط الاختيار من كتب الرفوف القريبة، ليس لكونها لا تقرأ جديداً، وإنما لأنها تحفظ عن ظهر قلب مساحة البحث، وأطره، لأنها تريد غالبا أن تفسد أي تمرد، وربما تثنيه عن كشفه الجديد. بمثل ما قد جرى عليها، وقد تجاوز العالم الحديث تلك المحنة منذ ان حاول التأسيس (منظومياً) لنظرية الثقافة العامة المقارنة؛ بمنهج قويم، عالم الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكي المشهور «لسلي وايت» Lesley White ـ (1975ـ1900)، مسمّيًا منهجه بـ(علْم الثقافة)، منهج تتبع الينابيع الى المصبّ، دون ان ينسى ذكر ما يستحق الذكر كروعة زقزقة الطير، وحفيف الشجر، الخ... ومثلاً: (فتحت باب التعليق. وانصبت التعليقات على الحضارة الفرعونية وسرّ انهيارها. قالت «فادية»: العامل الرئيسي هو ضعف الملوك الأواخر والتجاؤهم إلى العناصر الأجنبية المرتزقة من الإغريق. فهؤلاء ساعدوا «الفُرس» على احتلال «مصر» ومكنوا «الإسكندر» من غزوها بعد 150 سنة. قلت: وما الذي أضعف الملوك الأواخر؟ لماذا تجمدت الحضارة المصرية القديمة وكيف تحولت مصر من إمبراطورية إلى أطول مستعمرة في التاريخ على حدّ قول «جمال حمدان». قال «لاري» الذي يحمر وجهه كلما تكلم: حسب «توينبي» فان صعود وسقوط حضارة ما يعود إلى مبدأ التحدي الذي تواجهه هذه الحضارة وقدرتها على الاستجابة له. فما هو التحدي الذي واجهته الحضارة الفرعونية وفشلت في مواجهته؟ علقت «ميجان» مستشهدة بأطروحة المؤرخ الأمريكي «بول كنيدي»: إذا زادت الالتزامات الإستراتيجية للدولة العظمى على إمكانياتها الاقتصادية اضمحلت قوتها تدريجيا. وهذا قد يفسر أيضا سقوط الإمبراطورية السوفييتية (الرواية). جاءت الصفحات لتوثق وقع أحداث الأحداث، وليس لتحكي حكاية ما، ولكنها رواية خطوطها الفكر الذي ضاق بمفكريه، من بعد أن استعصى عليهم، ما لم يستطيعوا تحديده، وجاءت لترفع العتب ما بين اثنين اختلفا بالمناهج، والتقيا كإنسانية، واحدة على كوكب واحد مليء بالنصوص الجميلة، ولكنها أدرجت تاريخا قاتما، ومراً على أي باحث يريد أن يخلص نفسه من محنته السقيمة).

* كاتب من العراق

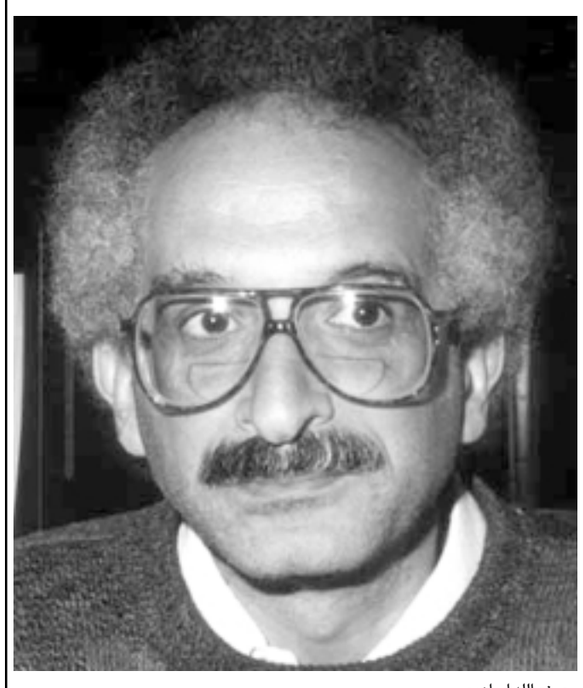

صنع الله ابراهيم

ندوة بحثية في اطار اكتشاف الذات والآخر:

السودان وافريقيا في المدونة الرحلية

علاء نعماني*

قطار الرحلة العربية

■ في محطتها الثالثة، تصل ندوة رحالة العرب والمسلمين الى السودان مع المركز العربي للأدب الجغرافي ارتياد الآفاق ومشرفه الشاعر نوري الجراح، وهذه المرة في محور اكتشاف الذات والآخر: السودان وافريقيا في مدونات رحالة الشرق والغرب حيث شارك فيها باحثون من مختلف الأقطار العربية، قدموا أوراقا ومداخلات من رؤى مختلفة تكاملت في بسط موضوعات قدمت معارف أساسية لفهم الذات والآخر واكتشاف أبعاد ثقافية في خطابات الرحالة الى السودان وافريقيا أو الى مناطق أخرى من العالم.

سبع جلسات على مدى أربعة أيام كان النقاش خلالها يستمر أحيانا الى ساعات متأخرة من الليل وذلك لغنى الأوراق وثرائها المعرفي ضمن مجموعة من المحاور المؤطرة:

ـ الجغرافيا السودانية وأدب الرحلة ويتضمن السودان في مدونات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين، وبلدانية السودان ثم مدونات الحج وهجرات العلماء والمتصوفة.

ـ السودان وأفريقيا في مدونات رحالة الشمال الأفريقي

ـ صورة السودان في رحلات حديثة

ـ نهر النيل

ـ السودان لدى الآخر الشرقي والآخر الغربي: تجارب ورؤى مختلفة (ملامح اثنوغرافية وثقافية قديمة وحديثة).

ـ صورة السودان في رحلات حديثة.

وقد قدمت في هذه الندوة ثلاثون مداخلة قدمها الباحثون الآتية أسماؤهم :

نوري الجراح، محمد أتونجي، خديجة صفوت، عز الدين عمر موسى، قاسم وهب، علي صالح كرار، يوسف فضل حسن، قيصر موسى الزين، مروان عطية، أحمد عوض خضر، حسن حسين ادريس، الأمين أبو منجة، سليمان القرشي، يحيى محمد ابراهيم، عز المغرب معنينو، عبد الرحيم مؤدن، نواف الجحمة، فؤاد آل عواد، محمد التونجي، انتصار صغيرون، علي عثمان محمد صالح، عبده عثمان، قاسم نور، جمال حسين علي، مايا عنتبلي الكواكبي، مفيد نجم، قاسم وهب، شعيب حليفي، الطايع الحداوي، خالد بن الصغير، معنينو عز العرب.

كما حضر هذه المناسبة شاكر لعيبي، علي بدر وأحمد السليماني.

المعرفة والمنهج

جاء تأكيد نوري الجراح وصديق المجتبى في الجلسة الافتتاحية ملتقطا لأهم عناصر هذه الندوة فقد لامس صديق المجتبى (المشرف على عقد الندوة في السودان) الأبعاد الثقافية والتحققات الممكنة مستقبلا. كما أكد، بدوره، نوري الجراح (المشرف على المركز العربي للأدب الجغرافي ارتياد الآفاق)، على التراكمات المعرفية مؤكدا ان هذه الندوة تأتي لتغطي بصورة أساسية الفضاء الجغرافي السوداني وترصد من خلاله حركة الرحلة منه واليه وعبره، نهراً وبحراً وميناء ومدينة وغابة وبادية وصحراء، وطرقاً عبرها التجار والعلماء والحجاج والمتصوفة والسفراء والمغامرون، عرباً وشرقيين وأوروبيين، فتستكمل أبحاثُها رسم الطريق الذي بدأه «المركز العربي للأدب الجغرافي ـ ارتياد الآفاق» في عقد ندواته السنوية انطلاقاً من المغرب الأقصى (مغرب اليوم)، الى المغرب الأوسط (الجزائر)، الى وسط افريقيا في بلاد النوبة والبجة (السودان) نزولاً عبر الجغرافيات الحضارية والثقافية الواقعة على البحر الأحمر، الى حواضر جزيرة العرب، قبل الانطلاق من هناك الى أرض السواد (العراق) وبلاد الشام ومصر، ومن ثم الى جغرافيات تركيا وايران وبلاد آسيا الوسطى والهند والصين، في مسعى ثقافي حضاري فكري أدبي يستهدف اعادة بناء جسور المعرفة القائمة على خبرات السفر والتواصل بين ثقافات الشرق في ما بينها وبين هذه الثقافات وثقافات العالم.

وعليه فان الندوة العلمية السنوية لـ«ارتياد الآفاق» هي رحلة الفكر في متون المدونات التي وضعها الرحالة بفعل مغامراتهم المفتوحة عبر طرق البر والبحر، في مختلف الأزمان، وعمر الرحلة العربية، كما قدمت وثائق البحث حتى الآن، يزيد على ألف عام.

في البحوث المقدمة تحدث عز الدين عمر موسى عن السودان في مخيلة الأدب الجغرافي المغاربي بين القرنين 11 و14م معتبرا أن أدب الرحلات هو نمط جغرافي رابع تعددت أسبابه وتنوعت فنونه بحيث دعت اليه دوافع ذاتية أو علمية أو تجارية أو دينية.

وتحدث الباحث عن مدوناته الجغرافية الوصفية والمسالك والممالك منقبا عن البدايات الأولى التأسيسية ثم نضجها واكتمالها والوقوف عند الكتابات المغاربية باعتبار أن الرحلة في الفترة ما بين القرنين (11 و14) كانت أوعية رئيسية للتواصل بين المركز وهوامشه من تم بحث د. عز الدين موسى في الصورة التي رسمها الأدب الجغرافي المغاربي للسودان خلال هذه الفترة مبديا مجموعة من الملاحظات القيمة والدقيقة.

قاسم وهب تحدث عن أخبار النوبة والبجة في مصنفات الجغرافيين العرب خلال القرنين التاسع والعاشر من خلال مدونات اليعقوبي، ابن الفقيه، الاسواني، المسعودي وابن حوقل، مستخلصا في النهاية أن معرفة الجغرافيين العرب ببلاد النوبة والبجة خلال تلك الفترة كانت محدودة ومفتقرة الى الدقة.

وقدم الصحافي والكاتب جمال حسين علي (العراق) تجربة رحلة المخاطر الى أفغانستان في حروبها الدامية ومشاهداته والمغامرات التي تعترض الشكل الرحلي الجديد الذي يخوضه صحفي وكاتب في عصرنا الراهن.

كما عرضت ألما عنتبلي حفيدة سعد زغلول الكواكبي (ابن عبد الرحمن الكواكبي) رحلة الكواكبي مع طفلة سرقت من السودان ـ سنار (حجاب النور) وطموحه لاعادتها الى أسرتها، لكن استشهاده بمصر سنة 1902 حال دون اتمام هذه الرحلة الانسانية.

سليمان القرشي عاد الى التنقيب في مواضيع دقيقة ورمزية وبحث في موضوع الماء في الرحلات الحجية المغربية ببعديه الحقيقي والرمزي، فالماء هو أهم وأخطر جزء في الرحلة الحجية ورمز بارز في مسارها.

وعرض عبد الرحيم مؤدن مدخلا عاما من رحلات وحواضر وطرق صوفية من خلال محطات من التواصل الثقافي بين المغرب والسودان ليدخل في صلب الموضوع حول الزياري والصوفي في رحلة (أزهار البساتين في الرحلة الى السوادين) لمحمد الأزاريفي البيضاوي، محللا هذا النص الرحلي الذي كان في أوائل القرن 20، من كافة النواحي الدلالية بمنهج حديث مركزا على الهاجس، المعرفي والتربوي الذي تحكم في صياغة نص الرحلة.

شعيب حليفي (المغرب) اهتم بالهوية في النص الرحلي وتتبع تطورية المعجم والصورة في ثلاثة أشكال رحلية، من منظور نسبي يفسح المجال لقراءات وتأويلات أخرى ينحصر فيها الناقد الأكاديمي والمؤرخ والجغرافي والفقيه والاثنوغرافي.

الشكل الأول لرحلات العرب والمسلمين التقليدية الحجية الزيارية والسفارية والسياحية.

الشكل الثاني رحلات الآخر الغربي الى البلاد العربية خلال القرنين السابقين، وهي رحلات سياحية علمية، ديبلوماسية وجاسوسية.

الشكل الثالث رحلات الأنا السوداني الداخلية والخارجية انطلاقا من وعي مقارن.

وقد بحث شعيب حليفي في ملامح وعناصر المعجم والصورة/الرؤية انطلاقا من لغاتها وأبعادها الدينية والثقافية والايديولوجية، ممثلا لذلك بنصوص من كل مرحلة.

اعلان الخرطوم والتوصيات

كانت الندوة مناسبة للاعلان عن تأسيس المركز العربي الافريقي للادب الجغرافي واعلان التوصيات التالية:

1 ـ تنفيذ اصدار مجلة «الرحلة» التي يخطط المركز لاصدارها، لبلورة أشكال الكتابة الرحلية حول العالمين العربي والاسلامي، والبلاد الشرقية، وعكس الدينامية الثقافية في هذا المجال.

2 ـ العمل وتشجيع العمل على تأسيس فروع للمركز العربي للأدب الجغرافي في العواصم العربية والشرقية.

3 ـ التحضير لعقد ندوة ثانية في الخرطوم حول الرحلات الأوروبية الى السودان، ومواصلة الاهتمام بالأدب الجغرافي في افريقيا.

4 ـ الاستمرار في ترجمة الرحلات الأجنبية الى اللغة العربية واعطاء أولوية لترجمة الرحلات العربية الى اللغات الأجنبية.

5 ـ العمل على اصدار ببليوغرافيا شاملة للرحلات العربية المطبوعة وكذا الدراسات المرتبطة بها.

6 ـ العمل على بناء معجم خاص باللغتين العربية والانكليزية لضبط أعلام الأماكن والبلدان، واستعادة الأسماء الأصلية للأمكنة لا سيما تلك التي تغيرت بفعل النشاط الاستعماري للجمعيات الجغرافية والبعثات الاستكشافية الغربية، ونحت مصطلحات جغرافية جديدة.

7 ـ الدعوة الى المزيد من طبع ونشر الرحلات العربية المحققة مزودة بكل ما يساعد على معرفة عالم الرحلة من خارطة سير الرحالة ومعجمه والملحقات الأخرى.

8 ـ الالحاح على برمجة النص الرحلي في مناهج التعليم، مع تشجيع البحوث الجامعية، واستثمار الشبكة العنكبوتية في هذه المجال.

9 ـ تشجيع فرق البحث العلمي والجغرافي والأثاري للاهتمام بأدب الرحلة واستثماره في أبحاثهم وكشوفاتهم.

10 ـ الدعوة الى تأسيس مكتبة عربية تضم كافة المخطوطات والمؤلفات حول الرحلة وأدب الرحلة.

11 ـ التوصية باقامة متاحف تجمع الارث الثقافي للرحلة بوسائل وأدوات ومصورات، ودعم الموجود منها في البلدان العربية.

12 ـ استثمار المتن الرحلي في التأسيس لسياحة ثقافية.

13 ـ الاعداد والمساهمة في انجاز أفلام وثائقية باللغة العربية وغيرها، وكذا تشجيع السينمائيين على تحويل الرحلات المكتوبة الى أفلام روائية.

14 ـ الدعوة الى فتح حوار حول الجغرافيات العربية والاسلامية في حراكها بين «مركز» و«هامش» بغية رصد التحولات العميقة والمؤثرة التي طرأت على هذه الجغرافيات وأدوارها الحضارية.

15 ـ ابتكار أشكال مستحدثة من التعاون مع و(الانتماء الى) المنظمات الدولية والاقليمية كمشروع ثقافي عربي فريد من نوعه ونشاطه يهدف الى (ويعمل على) تأسيس حوار خلاق بين الثقافات والحضارات المختلفة على أساس المرجعية الجغرافية وتراث التواصل الثقافي بين الأمم والجغرافيات.

16 ـ التقدم بطلب للانتماء الى الأمم المتحدة عن طريق الآليات المناسبة للحصول على نوع من الاعتراف اللوجستي لتطوير عمل المركز وتمكينه من تنفيذ مشروعات مشتركة مع المنظمات الاقليمية والدولية.

17 ـ التأكيد على أن نيل المركز دعم المنظمات الدولية من شأنه أن يساعد على تقديم المرجعيات العلمية الموضوعية والمستقلة للجغرافيات التي تشهد نزاعات محلية ذات أبعاد اقليمية ودولية كمشكلة دارفور في السودان، ومشكلة الجزر الاماراتية المتنازع عليها مع ايران، وقضية النزاع في الكونغو، وبالتالي تمكين الثقافة من المشاركة في خلق الحوار وتكريس السلام العالمي.

18 ـ ايلاء اهتمام مركز للتراث الشفاهي لأدب الرحلة جمعاً وتوثيقاً وتحقيقاً ودراسة ونشراً.

19 ـ انشاء موقع الكتروني تحت اسم «ندوة الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الذات والآخر» يتوفر على أعمال الندوة ووثائقها ومناقشاتها المكتوبة والمرئية والمسموعة باللغتين العربية والانكليزية لتكون في متناول دائرة أوسع من المختصين والمهتمين.

* كاتب من المغرب

قصيدتان

أحمد شافعي*

تخاطر

الآنَ
والقمرُ الغائبُ يغشي عيوني،
الآن والقمر الغائبُ
فارشٌ نورَه على جليد نصف كوكبنا الآخرِ
لفتاةٍ
تُوقفُ دراجتها
لتدوّن في دفترٍ برتق